المحاضرة الثالثة: الجهود العربية القديمة في المصطلحية

لا مراء في أنّ منجزات الذهنية العربية القديمة متجذرة في كتابات روادها الخالدة عبر العصور فقد كان وميض معارفهم وفنونهم نبراسا للأمم المتزامنة معها، وممتدا لشعوب الأزمنة اللاحقة.

ولعلّ صناعة المعرفة وترسيم مصطلحاتها كانت بشائرها منذ ميلاد العصر الإسلامي؛ إذ "طرأت مبادرات علمية جديدة، وسلوكات حياتية تطلّبت اللجوء إلى صناعة المعرفة باعتماد التوثيق تقديرا لمدى أهمية تقييد آثار النشاط الفكري، وقد كان لعلم الفقه بكلّ مستلزماته المعرفية فضل التنبيه على ضرورة اعتماد صياغة معرفية جديدة قوامها الاختصاص بتسمية الظاهرة الفكرة أو الظاهرة الاجتماعية حتّى ترسّخ الفكر وأثمر الاعتقاد، فكان العرب المسلمون يقولون بالأعرابيّ، والمولّد، والمخضرم، والصحابيّ، والتابع وتابع التّابع، وعلم الأصول (...)، حيث لا يمكن تسمية الظاهرة إلا بعد الإلمام بمقدّراتها الموضوعية عن طريق استيعاب شروطها المعرفية المتنوّعة التي تستجمع في مسمّى واحد تحدّده الصيغة الاسمية للاصطلاح" [1].

ولقد أكّد (أحمد مطلوب) هذا الاهتمام الذي أولاه العرب القدامى للمصطلح العلمي (المصطلح الشرعي)؛ إذ تحدّث عن النقلة التي حدثت للمفردة اللغوية العامة بعد أن صيّرت إلى مادة مصطلحية علمية؛ فيقول في هذا الشأن: «اهتمّ العرب بالمصطلحات العلمية، وكانت "الحقيقة الشرعية" أوّل روافدها وهي ألفاظ كانت لها معان لغويّة ثمّ نقلها الإسلام إلى معان جديدة؛ كالشهادة والصلاة والصوم والزّكاة والإيمان والكفر والفسق والنفاق» [2].

وفيما يتعلّق بالمصطلح النحوي في دائرة البحث اللغوي العربي القديم، فإنّه يمكن القول أنّ إسهاماتهم فيه قد كانت مهمة وموسّعة؛ إذ إنّ "المتتبّع للمصطلحات الواردة في الكتب اللغوية والنحوية القديمة

---

[1] العربي عميش، المصطلح في النقد العربي، كتابات معاصرة، بيروت، لبنان، مج18، ع69، 2008، ص117.

[2] أحمد مطلوب، بحوث لغوية، دار الفكر، عمان، الأردن، ط1، 1987، ص163.

يجد أنّ هذه المصطلحات قد قدّمت بصور شتى، تنوّعت وضوحا وغموضا ودقّة وإيجازا وغير ذلك من الصفات وأظهرت جانبا من المعاناة، التي كان أسلافنا رحمهم الله يعانونها" [3].

وإن كانت مشاريع التأسيس للمصطلح النحوي قد تبوأت مكانتها في التفكير المنهجي العربي القديم واستقامت في الكتب والمعاجم المثبّتة لها، فإنّه لا يمكن البتّة أن نغفل عن مباحث لغوية أخرى كانت لها الحظوة أيضا في تأثيث الخزانة المصطلحية العربية التراثية؛ والتي كان أهمّها (البلاغة العربية)؛ والتي رآها (تمام حسان) فرعا معرفيا نشأ في رحاب دراسات اللغة، والنحو، والمعاينات النقدية، والتي تسلّلت مصطلحاتها داخل مجال المصطلح البلاغي؛ وهذا ما عبّرت عنه مقولته الآتية: «ومن هنا رأينا بعض مصطلحات هذه الفروع تتسلّل إلى حقل المصطلح البلاغي، ويحتفي بها كما لو كانت في أصلها مصطلحات بلاغية. أنظر مثلا إلى مصطلحات مثل "الفصاحة"، و"البيان"، و"المجاز"، وغيرها ممّا ورد على ألسنة النحاة أو الأدباء، أو في البحوث التي تدور حول نصّ القرآن الكريم. وهكذا كان على مشروع العلم الجديد عن استعمال هذه الألفاظ المستعارة من مصطلح فروع أخرى أن يتناول دلالتها إمّا بالنقل، أو التوسيع، أو الحصر» [4].

ولقد تزايد الاهتمام بالمسألة المصطلحية مع "استيراد العرب للعلوم اليونانية والهندية والفارسية من منطق وفلسفة ورياضيات وغيرها، مما أدى إلى قيام علمائنا الأوائل بمحاورة لغتهم والتفتيش عن كنوزها الدفينة مستعينين بوسائل شتى مثل: الوضع والقياس، والاشتقاق والنحت، والترجمة والتعريف وهلم جرا... بهدف إبداع حدود العلوم ومصطلحاتها ورسومها وتعريفاتها" [5].

وفي سياق التأكيد على تميّز الجهود الاصطلاحية في التراث العربي القديم؛ فإنّنا نلفي الباحث الأكاديمي (لعبيدي بو عبد الله) مطلا علينا عبر كتابه (مدخل إلى علم المصطلح والمصطلحية) بمقولة الإشادة بجهود القدامى على الرغم من الانتقادات المسلّطة على المصطلحية العربية من لدن المحدثين، والذين

---

[3] مصطفى طاهر الحيادرة، من قضايا المصطلح اللغوي العربي، ص39.

[4] تمام حسان، المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة، فصول، القاهرة، مصر، مج7، ع3-4، أفريل، سبتمبر1987، ص21.

[5] نشأة علم المصطلح عند العرب والغرب،http://almahajjafes.net، 2018/02/17، 12:30.

أجمعوا –في منظوره– على قيمة طروحاتها وتطبيقاتها؛ لأنّها اصطبغت بالعلمية، وكانت مواكبة للمستجدات الثقافية والحضارية المناسبة لعصرهم [6].

بهذا، فإنّ الكتابات العربية التراثية لم تنأ عن دائرة المصطلح بيد أنه اختلق لها مسميات مغايرة أفصحت عنها العناوين الكبرى لمصنفاتهم التراثية، والتي "أفردت لهذا الغرض المعرفي، ومنها:(مفاتيح العلوم) للخوارزمي و(مفتاح العلوم) للسكاكي، و(التعريفات) للجرجاني، و(كشاف اصطلاحات الفنون) للتهانوي.." [7].

وبالإضافة إلى هذه الكتابات العربية التراثية الأصيلة الرائجة في مجال البحث المصطلحي، فإنّنا ألفينا (محمد صدّيق المنشاوي) مضيفا لعناوين أخرى متعاضدة معها؛ وذلك في سياق تقديمه لمعجم (التعريفات) لـ(الشريف الجرجاني)؛ فنراه قائلا في هذا الصدد: «ولعلّ "مفاتيح العلوم" للخوارزمي (387 هـ) من أقدم المصنّفات التي اهتمّت بتعريفات مصطلحات العلوم والفنون، ثمّ جاء كتاب "التعريفات" للجرجاني (816 هـ)، وهو الكتاب الذي نحن بصدده، ثمّ "التعريفات" لابن كمال باشا (940 هـ)، ثمّ "التوقيف على مهمات التعاريف" للمناوي (1031 هـ)، ثمّ "الكلّيات" لأبي البقاء الكفوي" (1094 هـ)، ثمّ "كشاف اصطلاحات الفنون" للتهانوي (1158 هـ)، وغيرها» [8].

كما وقفنا عند مقالة مهمّة للباحث (عبد الفتاح القلقيلي) والموسومة بـ(في دلالات المصطلح) والتي أثبت فيها عناوين تراثية تقاطعت مع الصناعة المصطلحية؛ حيث نجده قائلا في هذا الصدد: «ظهرت معجمات للمصطلحات في التراث العربي: المعجم الأوّل لجابر بن حيان "توفي 815 م" ويتمثّل في رسالته "الحدود"، وقد عالج فيها خمسة وأربعين مصطلحا، أمّا الفيلسوف يعقوب الكندي

---

[6] ينظر: لعبيدي بو عبد الله، مدخل إلى علم المصطلح والمصطلحية، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، (د.ط)، 2012، ص32.

[7] مصطفى طاهر الحيادرة، من قضايا المصطلح اللغوي العربي، ج3، ص14.

[8] الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، ص3.

"796م-873م" فوضع رسالته "الحدود والرسوم"، وقد حدّد فيها 109 من المصطلحات الفلسفية منها 95 مصطلحا لم يذكرها جابر بن حيان» [9].

بهذا، فإنّه يمكننا القول أنّ حركة وضع المصطلحات والألفاظ الجديدة قد اتّسعت "باتّساع الحياة وتقدّم الحركة الفكرية، وقد نجح السلف في ذلك كلّ النجاح واستطاعوا أن يستوعبوا العلوم والفنون ولولا ما أصابهم من انتكاسات لظلّ العلماء يرفدون الفكر بكلّ جديد بديع" [10].

وكي نمازج بين عمليتي (التنظير/الإجراء)، فإنّنا سنعرض نموذجين من المعجم الاصطلاحي التراثي قصد بيان مواصفاتها، وأهمّ ما قيل في شأنها لدى (صلاح كرازة)، والمتمثّلان -تحديدا- في (معجم التعريفات) لـ(الشريف الجرجاني)، و (كشاف اصطلاحات الفنون) لمؤلفه (التهانوي)، وبيان ذلك الآتي:

يقول (صلاح كرازة) في سياق وصفه لمعجم (التعريفات) -باعتباره أحد معالم الدرس المصطلحي المتخصّص في التراث العربي-: «ربما يكون كتاب (التعريفات) للجرجاني أبي الحسن علي بن محمد بن علي المتوفى في سنة 816 هـ من أقلّ كتب المصطلح المختصّة بعلوم العربية والشريعة حجما ولكنّه -مع ذلك- من أوثقها مادة وأدقّها تعريفا، ومن ثم أكثرها تداولا بين الباحثين» [11].

ولعلّ التنويه بهذا المعجم المصطلحي لم يكن بالمسألة الكشفية المبالغ فيها، فهو -بحق- عنوان الاجتهاد العلمي التخصصّي المتميّز، وذلك لمزاياه المتعدّدة في منظور الباحثين المطالعين لهيكلية صناعته المتينة ومن ذلك نذكر الامتيازات المعرفية والمنهجية الآتية [*]:

- يذكر -في عديد من المداخل- المعنى اللغوي والاصطلاحي للفظ.

---

[9] عبد الفتاح، القلقيلي، في دلالات المصطلح، أفكار، عمان، الأردن، ع250، 2009، ص19.

[10] أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص3.

[11] صلاح كرازة، المصطلح العلمي عند العرب: تاريخه مصادره نظريته، ص114.

[*] المرجع نفسه، ص114.

– يذكر المعاني المتعدّدة للمصطلح إذا ما تعدّد مجاله الموضوعي، وينصّ غالبا على المجال فيقول: في اصطلاح النحاة، أو في الشرع، أو في اصطلاح أهل الحقيقة...

– يخصّص للمصطلح الواحد غير مدخل إذا ما تعدّد مدلوله الاصطلاحي.

– يعرض لمصطلح ما ولما يتعلق به.

– يهتم أحيانا بإيراد بعض المعلومات الصرفية المتعلقة بالمصطلح. كما يهتم ببيان أصول المصطلح المعرب.

أمّا مصنّف (كشاف اصطلاحات الفنون) لمؤلفه (محمد بن علي التهانوي)؛ فإنّ بعضهم ينعته بأنّه "أكبر مصنّفات المصطلح حجما، وأوفاها مادة، ومن ثمّ كان أقرب إلى الموسوعة منه إلى المعجم العلمي المختصّ" [12].

ولعلّ العلامة النقدية المهمة في هذا المعطى النقدي السابق يتلخص في إدراج وأقلمة هذا العمل المصطلحي في دائرة الموسوعية بدل العلمية التخصّصية، وهو الأمر الذي لا نراه يملك المشروعية النقدية الثابتة؛ ذاك أنّ تداخله مع مجالات معرفية متعدّدة لا يقصيه من المظلّة العلمية التخصّصية؛ فالفكر الموسوعي فكر تجميعي لعلوم مختلفة ومتباينة. وبالتالي، فالأهم وقوفه عند مصطلحاتها كشفا واستقراء وتعريفا وتدقيقا؛ إذ نجده منوّها لذلك بقوله: «يضمّ الكتاب ما تيسّر له جمعه من مصطلحات العلوم العربية من نحو وصرف وبلاغة ...وغيرها، ومن مصطلحات العلوم الشرعية من فقه وكلام وتصوّف ومن مصطلحات العلوم الحقيقية كالمنطق والحكمة والهندسة والطب» [13].

ومجمل القول، فإنّ البحث اللغوي العربي القديم قد تعاطى الظاهرة المصطلحية؛ حيث إنّ المصنّفات السابقة الذكر تؤكّد عمق التقصّي العلمي للملفوظات التخصّصية، وذلك عبر بنائية هيكلية للمعاجم العلمية المخصوصة لفروع معرفية شتى، والتي ستظلّ مؤشرا نيّرا لعظم جهودهم البحثية المثمرة في مجال علمي تؤسّس له النظريات والمناهج في زمننا المعاصر.

---

[12] صلاح كرازة، المصطلح العلمي عند العرب: تاريخه مصادره نظريته، ص116.

[13] المرجع نفسه، ص116.